مستقبل التطورات العالمية في ضوء انتشار وباء كوفيد-19

أ.د. رابح لونيسي

قسم التاريخ- جامعة وهران-1

الملخص

تعرض العالم منذ القدم إلى حالات وأزمات وبائية حادة كالحمى الإسبانية، غير أنها لم تعرف انتشاراً واسعاً وبصورة عالمية كما هو الحال مع وباء كوفيد-19، وهذا بفعل التحولات التي عرفها العالم كنتيجة للعولمة والترابط الكبير بين الشعوب، الأمر الذي خلق أزمة عالمية على مختلف الأصعدة، شكل فيها كوفيد-19 نقطة مفصلية لـ العالم قبل وبعد الوباء. هذه الأزمة تدفعنا للتفكير في مستقبل العالم وعلاقات الدول فيما بينها من خلال سيناريوهين هما: التحولات المستقبلية في حال استمرار الوباء مدة طويلة وسيناريو ما بعد انحساره بعد مدة معقولة.

كلمات مفتاحية: كوفيد-19، وباء عالمي، الأمن الصحي، مستقبل العالم، العلاقات الدولية، الإقتصاد العالمي.

المقدمة

عرف التاريخ العالمي عدة أوبئة خطيرة تركت عدة تأثيرات سياسية وعسكرية واقتصادية مثل مرض الطاعون في أوروبا في القرن 14، بل حتى في الجزائر ترافقت الجرائم الاستعمارية مع انتشار أوبئة أثرت في تناقص السكان في القرن 19، ومن أحد أسباب ضعف الجزائر في أواخر القرن18م مثلا هو انتشار الزلازل والأوبئة بشكل كبير، مما مهد لسهولة احتلالها من فرنسا بعد عقود قليلة، لا يمكن لأي كان أن ينكر تأثير الأوبئة على دول ومجتمعات وجيوش وعلى العلاقات الدولية، لكن تأثيرها كان محليا في عمومها، لأن عادة ما انتشرت تلك الأوبئة في مساحة محدودة مكانيا، مما سهل التحكم فيها زمنيا ومكانيا، لكن هذا لا ينفي عدم وجود أوبئة انتشرت عالميا مثل الحمى الإسبانية التي دامت سنتين(1918-1920) على سبيل المثال لا الحصر، والتي ذهب

ضحيتها حوالي 40 مليون من البشر، لكن لم يصل الانتشار العالمي لهذه الأوبئة ما وصله وباء كوفيد-19 الذي أخذ بعدا عالميا كبيرا جدا بحكم العولمة التي حولت العالم إلى قرية صغيرة، ولهذا السبب لم يعرف العالم وباءا بهذا الفتك وسرعة الانتقال والانتشار، كما لم تتمكن أي دولة لحد الآن معرفة التطور الدقيق لهذا الوباء مستقبلا، فبعدما تم الاعتقاد بأنه سينتهي بعد شهور، وظهرت بوادر ذلك حتى عاد بقوة مفاجئا كل المتفائلين لدرجة إعلان منظمة الصحة العالمية في تقرير لها بتاريخ 31 جويلية بأن هذا الوباء سيستمر لمدة سنوات، فلهذا على العالم أن يتعامل حسب هذا الوضع المملوء بالمفاجآت، ويضع في حسابه كل السيناريوهات الممكنة بما فيها الأكثر سوءا منها لمواجهتها، فحتى لو تم اكتشاف لقاح له في أقرب وقت، فمن الصعب معرفة انعكاساته ونتائجه في ظرف قصير، كما أنه من المستحيل لقاح كل البشرية، ولهذا لم يعد مستقبل العالم والقدرة على التحكم فيه في يد الإنسان الذي تحول إلى تابع نسبيا لتطورات هذا الوباء، فلتزايد انتشار أو تراجع هذا الوباء تأثير كبير في ذلك، ولهذا يجب على الدول أن تحسب أيضا للاحتمالات الأكثر سوءا.

إن الانتشار السريع للوباء يطرح علينا عدة إشكالات، ومنها: كيف ستتطور الحياة البشرية في حالة تواصل انتشاره لسنوات طويلة، وما تأثير ذلك على العلاقات الدولية؟ فهل سيؤثر انحسار الوباء على هذه العلاقات بفعل تأثيره الكبير على الاقتصاد العالمي؟ فهل سينتج الوباء أزمة اقتصادية عالمية شبيهة أو أكثر حدة من الأزمة الاقتصادية 1929 بكل انعكاساتها العالمية، ومنها الحرب العالمية الثانية بسبب صعود قوى فاشية ونازية إلى السلطة مستغلين تلك الأزمة؟ فهل سيتكرر نفس الأمر بعد انحسار وباء كوفيد-19؟ هل يمكن اعتبار انتشار وباء كوفيد-19 نقطة تحول في التاريخ العالمي؟، سنجيب على كل هذه الأسئلة في إطار سيناريوهين وهما: في حالة استمرار الوباء مدة طويلة جدا وسيناريو ما بعد انحساره بعد مدة معقولة.

أولا- التحولات المستقبلية في حالة إستمراره مدة طويلة

شغل تحدي وباء كوفيد-19 العالمي كل البشرية التي تتساءل عن مدة استمراره وانعكاسات ذلك عليها، وأصبح الكثير يتحدث عن عالم ما قبل كوفيد-19 وما بعده، فهناك نوع من إجماع على أنه نقطة مفصلية في تاريخ البشرية، لكن نعتقد سيكون ذلك في حالة استمراره مدة طويلة، أما في حالة العكس سيكون له تأثيرات، لكن لن تكون

كبيرة جدا، ومن المؤكد أن تقضي البشرية على هذا الوباء كما قضت من قبل على أوبئة الطاعون والكلب والكوليرا وغيرها بفعل اجتهادات علماء يخدمون الإنسانية قبل أي أمر آخر مثل الفرنسي لويس باستور والألماني روبرت كوك، فرغم تنافسهما في القرن 19 إلا أنه كان تنافسا علميا بحتا في خدمة الإنسانية، وقد كان لهما ولتلاميذتهما القريبين والبعيدين دورا كبيرا في محاربة الأوبئة التي تختلف نسبيا عن وباء كوفيد-19 الذي يعد أخطر منها لأنه سريع الانتشار بحكم طابع العولمة التي جعلت العالم مجرد قرية صغيرة، فأوبئة الكوليرا والطاعون وغيرها كانت تنتشر في مواقع محدودة بحكم عدم انتقال كبير للبشر على عكس وباء كوفيد-19.

نعتقد أنه في حالة استمرار تحدي وباء كوفيد-19 العالمي لمدة طويلة، فإنه سيعيد المؤرخ البريطاني آرنولد توينبي إلى الساحة بعدما غيب لمدة طويلة، وذلك ليس في المجال الطبي والبيولوجي طبعا، بل في قراءة المستقبل وتطوراته، وسيعود توينبي بحكم نظريته «التحدي والاستجابة» حول نشأة الحضارات، فقد درس 27 حضارة في التاريخ العالمي في كتابه الشهير «في التاريخ» الذي يضم عدة أجزاء، وقد توصل توينبي إلى نتيجة مفادها أن كل هذه الحضارات هي نتاج تحد كبير تواجهه مجموعة بشرية في منطقة معينة، فتستجيب له إيجابيا من خلال طرق مواجهته بإبداع طرق وأدوات وتكنولوجيا متطورة لمواجهته، فينشأ من خلال ذلك حضارة جديدة، لتتوسع فيما بعد، ويستثني توينبي بعض التحديات غير المعقولة، والتي يستحيل على الإنسان مواجهتها، ولهذا لم ينشىء هؤلاء أي حضارة كالإسكيمو مثلا[1].

لا نعتقد أن تحدي وباء كوفيد-19 من التحديات التعجيزية، لأنه لو كان كذلك معناه نهاية البشرية. نعتقد أن هذا التحدي العالمي الجديد يختلف عن كل التحديات السابقة التي أشار إليها توينبي بكونه لايخص منطقة معينة، بل هو تحدي عالمي، وسيواجهه الإنسان في حالة استمراره مدة طويلة باستجابة إيجابية ليس بالقضاء عليه تماما، بل بإبداع أساليب جديدة للحياة على الصعيد العالمي، ويكون أبرز ملامحها هو التقليل إلى أكبر قدر ممكن لأي علاقات أو أساليب حياة مبنية على الاحتكاك بين البشر، مما سيؤثر سلبا على هذه العلاقات الإنسانية، ولايمكن أن يكون ذلك إلا بتطوير كبير جدا لتكنولوجيات الاتصالات الجديدة، خاصة الأنترنات التي ستسمح بعلاقات بشرية تتم عن بعد تماما، أو ما يمكن تسميتها بعلاقات وممارسات إلكترونية إن صح

التعبير دون أي احتكاك مباشر بين إنسان وآخر، وبهذا ستنشأ حضارة عالمية جديدة ليست خاصة بمنطقة دون أخرى، وسيتم مثلا التعليم والاجتماعات والتسيير والمبادلات التجارية وغيرها عن بعد دون أي اِحتكاك، وتتم بواسطة هذه التكنولوجيات الجديدة، وقد بدأت بوادر ذلك قبل ظهور هذا الوباء، لكن انتشار وباء كوفيد-19 سيدفع بقوة إلى اللجوء إلى ذلك حتى عند الذين تخلفوا عن هذا الركب، وهو ما يعني في الأخير أن القوة مستقبلا والقدرة على الاستمرار في الحياة، سيتحكم فيه مدى قدرتنا في التحكم في تكنولوجيا الاتصالات.

فإن تم ذلك فمعناه عدم تحقق ما استشرفه الفرنسي جاك أتالي في الكثير من كتاباته، خاصة في كتابيه «التاريخ المختصر للمستقبل» في 2006[2]، وكذلك «الإنسان الرحالة» في 2003 أين يرى أن الإنسان سيصبح رحالة وغير مستقر، وسيكون دائم الترحال، وسيسير كل أموره واحتياجاته بواسطة آلات صغيرة جدا كنتيجة لثورة الاتصالات الجديدة[3]، صحيح قد حقق جاك آتالي جزء من استشرافه هذا، وهو التسيير عن بعد لمختلف المؤسسات والشركات الاقتصادية مثلا، لكن وباء كوفيد-19 سيفرض على الإنسان الاستقرار، وليس الترحال والتنقل الدائم كما توقع.

كما من المحتمل إن استمر وباء كوفيد-19 العالمي مدة طويلة أن يقضى أو بتعبير أدق أن يقلص من تواجد كل التنظيمات المعتمدة على تجمعات كبرى كالجيوش التقليدية، لأن هذه التجمعات تحمل خطورة نقل الفيروس، وستقل بشكل ملفت للنظر الحروب الكلاسيكية المعتمدة على الجندي، وإن وجدت الحروب فستكون إلكترونية وبيولوجية وبواسطة الروبوتات، وهنا سيظهر الجندي المتحكم في تكنولوجيا الاتصالات، والذي يكون سلاحه الحاسوب وأرقى أدوات تكنولوجيا الاتصالات، وهو ما من شأنه إحداث تغيير كبير في العلاقات الدولية[4].

يظهر لنا الآن بأن كل دولة تحمي أمنها الصحي بغلق وعزل نفسها عن العالم بعد ما أصبح هذا الأمن في أول السلم للأمن الإستراتيجي للدول، لكن من غير المستبعد أن تكون تدخلات دولية فيما بعد حسب قدرة أو عجز أي دولة في حماية أمنها الصحي، فإن كانت قادرة على ذلك، فستتصدر المشهد مثل الصين الآن، وإن كانت عاجزة،

فستفقد استقلاليتها بحكم تدخل دول قادرة على ذلك لأن حماية أمن العالم يتطلب ذلك، أي سننتقل من فكرة الأمن الجماعي التي نتحدث عنها في الماضي والمتمثلة في بؤر التوتر التي تؤثر على الجيران إقليمياً ثم على العالم كله مثل الحروب الأهلية أو الإرهاب إلى أمن جماعي آخر، وهو عدم السماح بنقل الفيروس من دولة إلى أخرى، وفي حالة عجز أي دولة عن مواجهة خطر الفيروس، سيتم التدخل فيها إما لمساعدتها أو اتخاذ ذلك ذريعة لضمها بهدف السيطرة على الوباء كي لا ينتقل إلى الآخرين، فمن غير المستبعد أن يتطور ذلك كله إلى ظهور سلطة عالمية تسير العالم كله، لأن الحماية العالمية من انتشار الفيروس تتطلب ذلك، وبهذا الشكل سندخل نظام عالمي جديد، وستنشأ الدولة العالمية كما تنبأ بها بعض الماركسيين الذين بنوا تحليلهم المستقبلي على القول بأن الرأسمالية العالمية وبروز برجوازية عالمية سيؤدي إلى نشوء دولة عالمية لتوسيع السوق والتحكم فيه كما أنشأت البرجوازيات الوطنية مختلف الدول الوطنية في أوروبا لتوسيع السوق أيضا، لكن ليس السوق هو الذي سيفرض ذلك اليوم، بل مواجهة وباء عالمي هو كوفيد-19، وممكن أوبئة أخرى مشابهة أو أكثر فتكا مستقبلا.

إن كل هذه التطورات المستقبلية مرتبطة بمدة استمرار هذا الوباء العالمي، ومن غير المستبعد في حالة الاستمرار الطويلة لهذا الوباء اختراع الإنسان لألبسة أخرى تماما تمنع أو تخفف انتقال الفيروسات من إنسان لآخر في حالة الاحتكاك المباشر، لكن متى سيتم ذلك وبأي ثمن؟ وهل يمكن تلبية طلبات ملايير البشر بهذا النوع الجديد من الألبسة التي ستكون أسعارها عالية جدا بحكم تكلفة إنتاجها أم ستتم التضحية بالضعفاء؟، فهل سيعود داروين من جديد ليثبت نظريته البقاء للأقوى والأصلح على صعيد الصراع بين البشر، خاصة أن هناك نظرية متداولة تقول بأن وباء كوفيد-19 سيقضي على الضعفاء جسديا كالمسنين والمرضى الذين يمتلكون مناعة ضعيفة؟، فهل سندخل في مفاهيم جديدة للطبقية وللفقر الذي لا يبنى فقط على مستوى الحياة، بل على القدرة من حماية الإنسان من هذه الأوبئة الفتاكة؟

أبرز لنا وباء كوفيد-19 العالمي مدى أهمية العلم بمفهومه الصحيح، فممكن جدا أن يعطى للعلم والعلماء سلطة أكبر في المستقبل، بل هناك من يتحدث عن «دكتاتورية الأطباء» الذين لهم صلاحيات الحد أو السماح بحريات الأشخاص في التنقل أو الخروج من البيت، فأصبح السياسي يخضع لتوصياتهم حفاظا على استمرارية الجنس

البشري، كما أعاد هذا الوباء أيضا بعض التساؤلات الفلسفية بقوة، فكأننا عدنا من جديد إلى عصر التنوير الأوروبي المعروف بطرح الكثير من الأسئلة الفلسفية ومحاولات الإجابة عنها، خاصة حول ماهية ومعنى الحياة وقضايا الدين وما حقيقة الإنسان وغيرها من الأسئلة التي توارت إلى الخلف في العقود الأخيرة، بل توارت الفلسفة ذاتها، خاصة في مجتمعات منطقتنا، بل اِعتبرها البعض أنها تدعوا للكفر كما فعل أبي حامد الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة» ردا منه على بن رشد صاحب فكرة توافق العقل والشريعة الإسلامية بالرغم من أن الغزالي أيضا فيلسوفا بإمتياز، فالفلسفة عرفتها كل الحضارات سواء الحضارة الإغريقية الرومانية أو الحضارة الإسلامية التي نقلت عن الفلاسفة الإغريق كأرسطو وأفلاطون مثلا، كما طورت رؤى فلسفية كثيرة، ولم تكتف بالنقل فقط كما يدعي بعض المؤرخين الغربيين الذين يريدون طمس مساهمة المسلمين في الحضارات الإنسانية، لكن تميزت الفلسفة عند بعض المسلمين بإبعاد كل ما طرحه الفلاسفة الإغريق في المجال الديني واللآهوتي. يبدو لنا أن الكثير من الأسئلة الفلسفية المطروحة في الماضي ستعود بقوة مع وباء كوفيد-19 العالمي، كما سيكون لهذا الوباء ولمأساته حضورا كبيرا في أغلب الأعمال الأدبية والفنية كالرواية والسينما في المستقبل.

بدأت تظهر بعض المقالات في المجال الفلسفي، لكن لم تأخذ أبعادًا نقاشية كبرى لحد الآن، إلا أننا نلاحظ نقاشا واختلافا بين من يرى أن اِنتشار فيروس كوفيد-19 هو طبيعي، بل عاد أصحاب فكرة أنه لا وجود للشر أصلا، فكل ما نراه شرا يوجد وراءه خيرا كبيرا، ويستند هؤلاء على القول أن حتى انتشار هذا الوباء قد حمل معه الكثير من الإيجابيات على الإنسان والطبيعة، خاصة في المجال البيئي، حيث خفف كثيرا من تلوث البيئة، ومنها مشكلة التغيرات المناخية التي أصبحت مشكلة عالمية عويصة بما لها من تأثيرات كبيرة ليس فقط على حياة الإنسان، بل حتى على العلاقات الدولية وتزايد الهجرات ونقص الموارد المائية والفلاحية وغيرها، ويقول هؤلاء أن وباء كوفيد-19 قد كان ردا إيجابيا بشكل نسبي طبعا على عجز الإنسان عن إيجاد حل لهذا المشكل رغم كل الاجتماعات والدراسات العلمية للحد من هذه التغيرات المناخية.

هناك أيضا من يرى في انتشار وباء كوفيد-19 مؤامرة عالمية في إطار الصراع بين القوى الكبرى، وأنها تدخل في إطار حرب بيولوجية، فنحن لا ندخل في هذا النقاش، لأننا لا نميل تماما إلى نظرية المؤامرة المنتشرة بقوة في منطقتنا، والتي لعبت دورا سلبيا في إخفاء عيوبنا وضعفنا ومسؤولياتنا وتحميل كل مآسينا للآخرين «المتآمرين علينا».

لكن ذكرتنا كل هذه النقاشات الفلسفية حول وباء كوفيد-19 بنظرية تشارلز داروين الشهيرة في كتابه «أصل الأنواع والانتقاء الطبيعي» المنشور كاملا في 1859[5]، ولا نقصد بنظرية داروين ما روج عن أصل الإنسان والأنواع والقول بأن أصله قردا، مما أثار نقاشا دينيا كبيرا لازال حاضرا إلى حد اليوم، بل نقصد نظريته «البقاء للأقوى والأصلح» التي تقول أن الطبيعة تنتقي، وتنتخب عملية البقاء للكائنات القوية دون الضعيفة التي تموت طبيعيا، وقد انتقلت هذه النظرية بقوة من المجال الطبيعي إلى مجالات عديدة أخرى، ومنها حتى مجال العلاقات الدولية، فلنشر مثلا أن كارل ماركس المهتم بالتطور التاريخي للمجتمعات أرسل كتابه «الرأسمال» لداروين، لأن كثيرا ما كان ماركس، وخاصة صديقه أنجلس يربطون بين تاريخ الطبيعة وتاريخ المجتمعات، ويرون أن هناك تشابها كبيرا في عملية تطورهما.

ونجد في نفس تيار نظرية «البقاء للأقوى» نظرية العرق الأرقى التي نظر لها الفرنسي آرثر جوبينو في كتابة الضخم «عدم المساواة بين الأعراق» في 1853 أين صنف المجتمع العالمي إلى أعراق، وحاول الإثبات أنها غير متساوية، فهناك أعراق أرقى من أخرى بالطبيعة[6]، وهي من النظريات التي بنى عليها الإستعمار عملية إخضاع الشعوب لسيطرته ورفض إستقلالها معتبرا إياها بأنها شعوبا أدنى يجب تمدينها، خاصة الإستعمار الفرنسي الذي سعى في الجزائر مثلا إلى بناء شرعيته على هذه الفكرة، وذهب إلى نشر مئات الكتب والمقالات في فرنسا تبرز الإنسان الجزائري خاصة والإفريقي عامة بأنه عرق جد متخلف لدرجة إقامته معارض للمستعمرات تعطي هذه الصورة المتوحشة عن إنسان المستعمرات، وأبرزها معرض باريس في 1930، وكان يأتي أوروبيون إليها للتفرج على هؤلاء البشر كأنها تتفرج على حيوانات داخل أقفاص في حدائق الحيوانات[7].

فقد وضع جوبينو أساسا فلسفيا لكل ما يعتقده بعض الغربيين اليوم بأن تخلف شعوبنا متأصل فيها، مخفيا دور الاستغلال الرأسمالي العالمي في ذلك التخلف، والذي فسره بإسهاب منظرو التبعية للمركز الرأسمالي في أمريكا اللاتينية بقوة أمثال إيمانويل والرستين Immanuel wallerstein وفرانك A.G Frank و أوسفالدو سنكل Osvaldo SunKel وغيرهم، ومنهم أيضا المفكر المصري سمير أمين بنظريته حول المركز الرأسمالي الذي يستغل الأطراف أو ما يسميه بـ "التبادل اللامتكافئ"[8].

لكن أبرز من نقل نظرية داروين في الأنواع والكائنات إلى مجال الفلسفة هو الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه بحديثه عن السوبرمان، أي الإنسان القوي في أهم كتاب له هو «هكذا قال زرادتشت»، ويقدس فيه القوة والرجل القوي الذي سيلتهم الضعيف لدرجة قوله أن الأخلاق والقانون والدين وغيرها من اختراع الضعفاء لحماية أنفسهم، فهو يدعو إلى عبادة القوة على حساب الضعفاء[9]، لكن لحد الآن لم نتمكن من الإجابة والجزم هل أفكار نيتشه هي وليدة نجاته من وباء الكوليرا الذي انتشر في بلدته أم هي وليدة مأساته في الحرب الفرنسية-الروسية؟

لكن ما هو مؤكد أن هتلر والنازية الألمانية قد أخذت منه ومن أفكار جوبينو العنصرية فكرة العرق الجرماني القوي الذي بنى الحضارة -حسبها- وضرورة بقاءه نقيا، ولا يختلط بالأعراق الأدنى كي لا تضعف الحضارة وحفاظا عليها، وذهبت النازية أبعد من ذلك وهي عدم السماح للضعفاء جسديا والمرضى بالزواج كي لا يولد أطفالا ضعفاء، وكادت أن تدعو للتخلص منهم، فانطلاقا من ذلك كله يبقى السؤال: هل وباء كوفيد-19 الذي يقتل كثيرا الشيوخ والمرضى وضعيفي المناعة حسب ما يقال هو انتقاء طبيعي كي يبقى الأقوياء جسديا فقط كما يقول داروين أم أنها مؤامرة الرأسمالية العالمية لتخفيض عدد البشرية بالتركيز على المسنين والمرضى لأنهم عالة على الإنتاج كما يقول بعض أصحاب نظرية المؤامرة؟ نعتقد أن هذه الأخيرة مستبعدة لسببين أولهما: أن قوة الإنسان اليوم ليست بقوة الجسد، بل بقوة العقل، فكم من ضعيف جسديا، لكنه مخترع كبير، كما أنه ليس في صالح الرأسمالية التخلص من هؤلاء الذين يستهلكون الأدوية وغيرها، وهي التي تعيش من توسع السوق، ويبقى النقاش مفتوحا في ذلك، لكن ما يهمنا من كل ذلك هو أن هذا الوباء هو نقطة تحول كبيرة في تاريخ البشرية، وهو يشكل تحد كبير للإنسانية على المستوى العالمي، وسينتج إن استمر مدة طويلة حضارة عالمية جديدة كاستجابة إيجابية لهذا التحدي.

فلنلفت الانتباه أننا لم نتطرق إلى نظرية داروين وكل هذه النظريات العنصرية التي تحتقر الضعفاء، وتقدس فلسفة القوة إلا لكي نحذر من عودتها بقوة إلى الساحة الدولية، خاصة في حالة نشوب أزمة اقتصادية عالمية حادة بسبب وباء كوفيد-19 التي حذر منها تقرير للبنك الدولي صادر بتاريخ 08 جوان 2020[10]، فأزمة شبيهة بأزمة 1929 ستفتح الطريق واسعا لليمين المتطرف بالصعود إلى سدة الحكم كما وقع بعد

أزمة 1929 وصعود النازية والفاشية بكل توجهاتها العنصرية المقدسة للقوة، وهو ما يفتح أمامنا مسألة مستقبل العلاقات الدولية بعد انحسار هذا الوباء الذي سينتج عنه أزمة اقتصادية عالمية وإمكانية حدوث تحول في النظام الدولي بصعود قوى عالمية وانحسار أخرى كما يحدث بعد كل حرب كبرى، فهذا الوباء يشبه تقريبا حربا عالمية، لكن بطابع آخر، فكما كانت للحروب الكبرى تأثيرات جذرية على العلاقات الدولية، فمن المؤكد أن يكون لهذه الحرب ضد وباء كوفيد-19 تأثيراتها أيضا، فأين تكمن هذه التحولات والتأثُيرات؟

ثانيا- مستقبل العلاقات الدولية بعد انحسار وباء كوفيد-19

قلنا سابقا أن الحرب ضد الوباء العالمي كوفيد-19 لا تختلف كثيرا عن الحروب العالمية الكبرى بكل تأثيراتها وانعكاساتها على العلاقات الدولية والنظام العالمي وموازين القوى، فمن غير المستبعد أن تنتج أزمة اقتصادية حادة شبيهة بالأزمة الاقتصادية 1929 بكل تأثيراتها، كما سيشهد العالم صراعا آخر بين القوى الكبرى من أجل الزعامة العالمية، فهل حقا كما يعتقد البعض سيعرف العالم صعود الصين إلى الزعامة وتراجع الولايات المتحدة الأمريكية؟

1 - مستقبل القوى العالمية وما حقيقة صعود الصين بعد وباء كوفيد-19

يعتقد بعض المحللين والمتابعين بإمكانية إزاحة الصين للولايات المتحدة الأمريكية من الزعامة العالمية على المدى القريب والمتوسط، خاصة بعد ما أثبت وباء كوفيد-19 عجز عدة دول نعتقد أنها قوية كالولايات المتحدة الأمريكية على مواجهته في الوقت الذي تمكنت فيه الصين من القضاء عليه تقريبا، وهو ما يلمح له بشكل غير مباشر حسب القراءات الأولية للكتاب الأخير للفرنسي باسكال بونيفاس Pascal boniface المعنون «جيوبولوتيكا كوفيد-19»[11].

يتطلب الإجابة على ذلك أن لا يغيب عن ذهننا التفوق الأمريكي الكبير على الصين في المجالات العسكرية والتكنولوجية[12]، وأيضا في تكنولوجيا الاتصالات الذي سيكون العامل الرئيسي أو المقياس الذي سيحدد قوة الدول مستقبلا، ولو أن حتى الصين قوية نسبيا في هذا المجال، خاصة بعدما أثار موقع التواصل الاجتماعي الصيني تيك

توك Tic Toc غضب أمريكي دفع ترامب إلى الحديث عنه متهما الصين، بأنها تستخدمه للتجسس، وما هو في الحقيقة إلا خوف من منافسته للشركات الأمريكية ومواقعها الشهيرة في التواصل الاجتماعي.

كما لا يجب أن يغيب عن ذهننا موقع الصين في شرق آسيا، حيث هي محاطة بعدة خصوم لها، ومنها اليابان والهند والفيتنام وإمكانية استغلال الولايات المتحدة الأمريكية ذلك لاستنزاف الصين اقتصاديا وعسكريا بهذه الصراعات[13]، لكن قولنا هذا ليس نهائيا، بل نعتقد أنه بإمكان الصين إزاحة ليس فقط أمريكا، بل كل الغرب الرأسمالي، فتضعفه وتحاصره، لكن تحقيق ذلك مرتبط بشرط هام جدا، ويتمثل في إمكانية قيادة الصين لعالم الجنوب في معركة التحرر من قوى المركز الرأسمالي العالمي، وهو العالم الذي يسميه أصحاب نظريات التبعية الرأسمالية بعالم المحيط التابع لقوى المركز الرأسمالي والخاضع لاستغلالها، وأنه لا يمكن التحرر من قوى المركز الرأسمالي إلا بفك الارتباط معها.

كي نوضح الفكرة، فإن عالم الجنوب يزداد تخلفا وفقرا مقابل تزايد عالم الشمال غنى وتركيزا للثروة العالمية في يده بفعل الاستغلال الرأسمالي العالمي الذي يتعرض له عالم الجنوب الذي هو ليس فقط مصدرا للمواد الأولية والطاقة، بل هو أيضا سوقا لعالم الشمال الرأسمالي، وقد تكرس ذلك أثناء استعمار عالم الجنوب من قوى المركز الرأسمالي بعد وقوع الرأسمالية في أزمتها الدورية الأولى في النصف الأول من القرن 19، حيث اضطرت الدول الرأسمالية لحل أزمتها إلى استعمار بلدان الجنوب بحثا عن مواد أولية وأسواق لتسويق فائض الإنتاج وبحثا عن مناطق للاستثمار، فقد فسر البريطاني هوبسن ذلك بشكل مستفيض في كتابه «في الإستعمار» الذي ظهر في 1902، وهو الكتاب الذي إستند عليه لنين في تطوير ذلك التفسير والتوصل إلى مقولة «الإستعمار أعلى مراحل الرأسمالية» الذي هو عنوان الكتاب الشهير للنين الذي أدرك أن الإستعمار هو أيضا وسيلة وأسلوب لإنقاذ الرأسمالية نفسها من الثورات الاجتماعية التي ستؤدي حتما إلى الثورة الاشتراكية، ما جعله يرسل ندائه إلى شعوب الشرق المستعمرة للثورة على الإستعمار في 1919.

إن هذا النظام الاقتصادي العالمي السائد اليوم قد وضع في القرن 19 بعدما كرس الإستعمار الأوروبي التقسيم الدولي للعمل، حيث تخصصت البلدان المستعمرة في تصدير المواد الأولية والطاقة فقط مقابل فتح أسواقها لاستيرادها بعد تحويلها إلى

سلع مصنعة وبأسعار مضاعفة عشرات المرات من بلدان الشمال[14]، فنشأ ما يسميه سمير أمين «التبادل اللامتكافىء» الذي يفسر تخلف عالم الجنوب[15]، فبقي هذا الوضع بعد استقلال بلدان الجنوب وظهور مايسمى بـ «الإستعمار الجديد» الذي أبقى الوضع الاقتصادي والاستغلالي كما كان في العهد الاستعماري المباشر، وهو ما جعل دول الجنوب تطالب بنظام اقتصادي عالمي جديد أكثر عدلا، لأن هذا النظام السائد قد وُضع في غياب شعوب عالم الجنوب في القرن 19 كما قال الرئيس هواري بومدين أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في 1974 متحدثا باسم دول عدم الإنحياز، ومطالبا بإسمها إعادة النظر في هذا النظام الاقتصادي العالمي المجحف، لكن رُفض، ولازال يرفض الغرب أو عالم الشمال أي تغيير جوهري في هذا النظام الاقتصادي العالمي، ولم يساعد بعض دول الجنوب إلا في إطار الحرب الباردة فقط لمواجهة المعسكر الشيوعي بزعامة الإتحاد السوفياتي، لكن هل هناك أمل اليوم لإنقاذ عالم الجنوب وإخراجه من الاستغلال الرأسمالي العالمي بصعود الصين اقتصاديا؟

يصعب اليوم إن لم يكن مستحيلا على دولة منفردة من عالم الجنوب أن تفك ارتباطها بالمركز الرأسمالي لوحدها، لكن هناك نموذج واضح تمكن من تحقيق ذلك، وهو الصين التي نجحت إلى حد ما في فك ارتباطها بالمركز الرأسمالي وتحقيق تنميتها الاقتصادية بناء على تشجيع الاستثمارات في القطاعات المنتجة في الداخل وخلق برجوازية وطنية صينية تدور حول الذات بدل التبعية للمركز الرأسمالي، وقد تم ذلك بدفع البرجوازية البيروقراطية أي أصحاب الأموال المستفيدين من النفوذ والسلطة في عهد ماوتسي تونغ إلى الاستثمار في القطاعات المنتجة، دون أن ننسى تشجيعها كل الاستثمارات الوطنية والدولية الفردية والجماعية منها في الصين[16]، وهو نفس ما قامت به اليابان تقريبا عندما دفع الإمبرطور الميجي الإقطاعيين الفلاحيين في 1868 إلى الاستثمار في الصناعة مع تطوير التعليم، لتتحول اليابان إلى دولة صناعية بعد أقل من ربع قرن رغم انعدام أي موارد وثروات طبيعية عندها.

فبإمكان دول الجنوب اليوم القيام بنفس التجربة الصينية واليابانية، فتحول طبقة الكمبرادور (أي إستيراد- إستيراد) التابعة للمركز الرأسمالي والمرتبطة مصالحها بهذا المركز إلى برجوازية وطنية تستثمر في القطاعات المنتجة بدل ما تبقى مجرد طائفة من الوكلاء المكلفة بتسويق سلع الرأسمالية الغربية في أسواق بلدان الجنوب، فتحول

بذلك المواد الأولية وطاقة هذه البلدان إلى مواد مصنعة بدل ما تصدرها إلى الغرب الرأسمالي، مما أبقتها في تبعية ليس فقط للغرب، بل أيضا للطاقة وأسعارها التي يتحكم فيها هذا الغرب الرأسمالي.

لكن قيام بلدان الجنوب بذلك يمكن أن تخضعها لضغوط كبرى من الغرب الرأسمالي، لأن ذلك سيشكل تهديدا قاتلا للاقتصاديات الغربية التي لن تسمح إطلاقا بتكرار التجربة الصينية مرة أخرى في هذه البلدان، ونشير أنها قد سبق لها أن غزت مصر في عهد محمد علي، وفرضت عليه معاهدة 1840 التي تمنع عليه القيام بصناعات، وفرضت عليه فك كل المصانع المصرية آنذاك[17]، فكلما لاحظ الغرب دولة من عالم الجنوب تعمل على تصنيع ذاتها تدمرها بشكل أو بآخر، ولن تسمح إلا بصناعات لايريدها الغرب في بلاده، لأنها ملوثة للبيئة مثلا، فالبلد الوحيد الذي نجح في التخلص من ضغط غربي هو الصين التي تمكنت من حماية نفسها بفضل قوتها العسكرية من جهة ولحاجة الغرب الرأسمالي لها لمواجهة الإتحاد السوفياتي أثناء الحرب الباردة، خاصة بعد زيارة نيكسون إليها في 1972، كما عرفت الصين كيف تغري المستثمرين الغربيين لجلبهم للاستثمار فيها بسبب اتساع السوق واليد العاملة الرخيصة، لكن لم يع الغرب الرأسمالي الخطأ الذي ارتكبه إلا بعد فوات الأوان، خاصة بعد ما اكتشف أن أزمة 2008 كانت بسبب هروب الرأسمال الصناعي الغربي إلى الصين وتحول الاستثمارات الأمريكية إلى العقار غير المنتج للسلع، لكنه ذو أرباح مضمونة[18]، ونشير أنه لأول مرة يصل مستثمر في العقار إلى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، وهو دونالد ترامب، مما يمكن أن يوحي لنا بتغيرات وتحولات في الرأسمالية الأمريكية.

فإن أرادت الصين الصعود إلى الزعامة العالمية، فلتساعد بلدان الجنوب لتكرار نفس تجربتها وحمايتها من أي ضغوط غربية، فلو حدث ذلك سيضعف الغرب الرأسمالي، لأنه لن يجد لا مواد أولية ولا أسواق لسلعه، فتغلق الكثير من مصانعه، وتسود البطالة فيه، لكن هل ستقبل الصين بذلك، لأنها حتى هي ستصبح مهددة في أسواقها وفي المواد الأولية والطاقوية التي تجلبها من بلدان الجنوب؟

نعتقد أن هذا هو الشرط الوحيد إضافة إلى تحسين الصين علاقاتها مع جيرانها هو الكفيل بجعلها تصعد إلى زعامة العالم بعد ما تتزعم عالم الجنوب، وتخلصه من

التبعية للمركز الرأسمالي، فحتى لو يستبعد الكثير ذلك بحكم الضرورات الدولية الواجب رعايتها، إلا أننا نشير للتاريخ فقط بأن الصين معروفة بمحاولاتها قيادة عالم الجنوب، فقد حاولت الصين الشعبية ذلك في عهد ماوتسي تونغ، بل شارك شوان لاي في المؤتمر الآفرو-آسيوي بـ باندونغ في 1955 بهدف تخليص العالم الثالث من هذه التبعية في منتصف الخمسينيات إلا أن المحاولة فشلت آنذاك، لكن يمكن القول أن ذلك يوضع في سياق تلك الفترة، والمتمثل في الحصار المفروض على الصين الشعبية وعدم الاعتراف بها دوليا، فكانت مستعدة للقيام بأي مبادرة من أجل الخروج من ذلك الحصار المميت لها، وللتذكير فقط كمثال عن هذه المواقف الصينية آنذاك، فقد عرضت الصين الشعبية مثلا على الثورة الجزائرية الأموال والرجال كمساعدات لها بعد زيارة وفد للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية إلى الصين أين حظي باستقبال شعبي كبير، مما جعل كريم بلقاسم أحد قادة الثورة الجزائرية الكبار يفتخر على العرب بالصين وكمحاولة منه لتحفيزهم على تكثيف المساعدات للثورة الجزائرية، فكان يقول لهم أن الثورة الجزائرية جمعت في يوم واحد من الصين، ما لم تتمكن جمعه من العرب طيلة سنوات، فقد ذكرنا بذلك كله كي نعرف إن كان الوضع لازال متشابها،.لكن يمكن أن يقول البعض باختلاف الوضع، أن هدف الصين آنذاك هو الخروج من الحصار المفروض عليها، لكن نرد على ذلك بأن الوضع متشابه تماما، لكن هذه المرة بهدف تحقيق الصين صعودها إلى الزعامة العالمية وإزاحة الولايات المتحدة الأمريكية عنها، لكن كيف سيكون موقف الولايات المتحدة الأمريكية والغرب الرأسمالي في حالة صعود الصين؟، وكيف سيرد العالم على نشوب أزمة اقتصادية عالمية؟.

2 - مستقبل الاقتصاد العالمي وتأثيراته السياسية بعد انحسار وباء كوفيد-19

يركز العالم اليوم كل جهوده على تجاوز وباء كوفيد-19 لإنقاذ حياة البشر، وهو ما سيتم بفضل جهود العلماء لإيجاد الدواء كما نجح من قبل لويس باستور وروبرت كوخ وغيرهم في مواجهتهم للأوبئة المعدية، لكن ما يؤسف له هو ما موقع مجتمعات منطقتنا من كل هذا النقاش والمجهود العالمي حول مواجهة هذا الوباء لإنقاذ البشرية، لكن هذا لا يعني أبناء منطقتنا المهاجرين المساهمين في هذا النقاش العالمي، كما بينت ذلك زيارة الرئيس الفرنسي ماكرون إلى مخبر ديدي راولت الذي يعج بباحثين من منطقتنا، وهو ما يدل دلالة قاطعة امتلاك شعوبنا لكفاءات عالية جدا، لكن

لم تتوفر لها البيئة الملائمة لتوظيفها في دولها، وهو ما يتطلب التفكير الجدي في طريقة مثلى وفعالة لاستغلالها في خدمة دولها بدل خدمة دول أخرى، خاصة في ظرف أثبت فيه أن العلم هو المفتاح الرئيسي، إن لم نقل الوحيد للتقدم والخروج من التخلف.

لكن في الوقت الذي انشغل فيه العالم بإيجاد حلول وأدوية لمواجهة هذا الوباء العالمي تناسى الجميع ومنهم خبراء المستقبل التساؤل عن ماذا سيحدث بعد انحسار هذا الوباء، فقد أشرنا سابقا بأن تحولات كبرى ستحدث، بل إمكانية قيام حضارة جديدة معتمدة تماما على تكنولوجيا الاتصالات لتجنب التقارب والإحتكاك بين البشر كي لا تنتقل العدوى، أي فرض التعامل عن بعد في كل المجالات، لكن سيكون ذلك في حالة استمرار هذا الوباء مدة طويلة جدا، لكن في حالة العكس، فإن تغيرات وتحولات أخرى، ستحدث على الصعيد الاقتصادي، فكلنا نعلم اليوم توقف نسبي لعمليات الإنتاج، مما سيؤدي إلى أزمة اقتصادية حادة ونقصان المواد الاستهلاكية، وممكن نشوب صراعات مسلحة على المتوفر من هذه المواد، خاصة الغذائية منها، وقد بدأت مظاهر ذلك بداية من المستلزمات الطبية قبل انتقالها إلى مواد أخرى من خلال قرصنة بعض الدول للمستلزمات الطبية لمواجهة هذا الوباء، فمن غير الممكن أن يكون ذلك متواصل إلى حد الساعة، لكن في الأسفل، أي بشكل غير علني، وهو ما يسمى بالحروب السرية.

سيعرف العالم بعد انحسار وباء كوفيد-19 أزمة اقتصادية حادة شبيهة إن لم تكن أكبر بكثير من أزمة 1929 كما أشار إلى ذلك مثلا تقرير البنك الدولي الذي أشرنا إليه آنفا، فإن كانت أزمة 1929 تدخل ضمن الأزمات الدورية للرأسمالية العالمية التي تحدث بعد كل سنوات بسبب طبيعة الرأسمالية ذاتها المبنية على العرض والطلب، وكنتيجة لتضخم الإنتاج بسبب قلة الطلب مما يؤدي إلى كساد اقتصادي، فتغلق المصانع، وتنتشر البطالة كما وقع في ثلاثينيات القرن 20[19]، لكن ما يعرف عن الرأسمالية العالمية أنها كلما دخلت في أزمة أو هددها خطر ما فإنها تعرف كيف تخرج منها بأسلوب أو بآخر، فتنقذ نفسها، وعادة ما يصحب ذلك تحولات كبرى في النظام العالمي والعلاقات الدولية، فمثلا الأزمة الدورية الأولى للرأسمالية التي جاءت بعد عقود من بدايات الثورة الصناعية في النصف الثاني من القرن 18 أنتجت الإستعمار الأوروبي الحديث بكل صراعاته وباحتلال عسكري لبلدان ضعيفة بحثا عن الأسواق والمواد الأولية ومناطق للاستثمار حسب تحليل البريطاني هوبسن في كتابه «في الإستعمار» عام 1902، وكذلك

لينين في كتابه «الإستعمار أعلى مراحل الرأسمالية»، أما أزمة عام 1929، فقد أنتجت الحرب العالمية الثانية بعد صعود أيديولوجيات فاشية مستغلة تلك الأزمة الاقتصادية كما وقع في ألمانيا مع هتلر الذي وصل إلى السلطة في 1933 باستغلال البطالة والبؤس الناتج عن تلك الأزمة، إضافة إلى الإهانة التي ألحقت بألمانيا في مؤتمر فرساي 1919، ونجد نفس الأمر تقريبا في إيطاليا مع موسوليني الذي وصل إلى السلطة في 1922 مستغلا الأزمة الاقتصادية التي عرفتها إيطاليا بسبب الحرب العالمية الأولى.

فقد كانت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية أحد الأسباب الرئيسية لصعود الأيديولوجيات الفاشية إلى السلطة التي ستهدد السلم العالمي فيما بعد، فهذا السيناريو غير مستبعد في عدة دول بعد انحسار وباء كوفيد-19 وظهور أزمة اقتصادية حادة، ومن الدلائل على ذلك عودة خطاب عنصري مخيف في عدة دول وسماعنا للبعض من صناع الرأي في الغرب يتحدثون عن القيام بتجارب علاجات ضد كوفيد-19 على الأفارقة كأنهم فئران تجارب في ظل صمت العالم، وهو في الحقيقة مجرد بداية صعود لتفكير عنصري استعماري فاشي جديد يحتقر الشعوب الأخرى كما كانت تحتقرها النازية الهتلرية في ثلاثينيات القرن 20، ويخشى أن يزداد هذا الفكر العنصري والاستعلائي انتشارا إذا نجح الغرب في إيجاد الدواء لكوفيد-19، فيسعى إلى إبراز ذاته أنه منقذ للبشرية، وأنه أكثر ذكاء من الآخرين، خاصة أن البعض في منطقتنا يساعدونهم على ذلك، ويعطون لهم مبررات دون وعي منهم، فهل من المعقول أن يتحدث العالم عن علماء الطبيعة والتكنولوجيا، ويتناقش عن طرق لمواجهة هذا الوباء في الوقت الذي تركز فيه بعض فضائيات ووسائل إعلام دول منطقتنا على أناس لا علاقة لهم بالعلم إطلاقا، فهم أقرب إلى الشعوذة، فتجدهم هم المتحدثون عن الوباء وكيفية مواجهته.

إذا واصلت شعوب منطقتنا بنفس هذا التفكير، سيحتقرها العالم أكثر، وسيضعها في درجة أدنى من الإنسانية، وهو ما سيعطي مبررات للغرب لإلحاقها به وإخضاعها للاستغلال، لكن بأشكال أخرى، لأنها لا تستحق الحياة -في نظره-، وأنها عالة على البشرية، خاصة إذا استغلت الأزمة الاقتصادية والاجتماعية لنشر الأفكار المتطرفة المنتجة للإرهاب في هذه المنطقة كما وقع في ثمانينيات القرن 20، مما سيعطي مبررات أكثر للغرب للضغط على دولها والتدخل في شؤونها تحت غطاء مواجهة خطر الإرهاب العالمي، فهذا كله سيدفعنا إلى التساؤل: ألا يمكن أن تحل الرأسمالية العالمية أزمتها

الجديدة الناتجة عن وباء كوفيد-19 بإخضاع العالم المتخلف كما فعلت في القرن 19، لكن سيتم ذلك بأشكال وطرق وأساليب أخرى جديدة، لعلها لم تخطر على بال أحد، فهذا العالم مملوء بالمفاجآت؟

فإن كانت أزمة 1929 أحد أسباب الحرب العالمية الثانية في أوروبا، فإن الأزمة القادمة بسبب وباء كوفيد-19 يمكن أن تؤدي إلى حرب في شرق آسيا، فكل العالم يلاحظ الصعود الصاروخي للصين الشعبية اقتصاديا منذ سنوات بفعل الإصلاحات التي جاءت بعد وفاة ماوتسي تونغ المبنية على تشجيع الاستثمارات الخاصة والعمومية في القطاعات المنتجة، مما حول الصين إلى قوة اقتصادية عالمية اليوم، وأصبحت جالبة للمستثمرين بما فيهم الأمريكيين بسبب رخص اليد العاملة والسوق الواسعة، وقد سبق أن تطرقنا إلى ذلك من قبل.

إن حديثنا عن الصين يدفعنا إلى تسجيل ملاحظة مهمة جدا، وتتمثل في تعاطف شعوب منطقتنا مع الصين الصاعدة اليوم كما تعاطفت مع اليابان من قبل عندما انتصرت على روسيا القيصرية في 1904، حيث كتبت الكثير من القصائد الشعرية في ذلك، وعلى رأسهم الشاعر المصري حافظ إبراهيم، ويعود هذا التعاطف إلى الاعتقاد بأنها من شعوب الشرق، هذا من جهة، ومن جهة أخرى إلى وجود رغبة لرؤية الغرب ضعيفا ومهزوما، ونفس النظرة تجاه روسيا القيصرية المستعمرة لبلاد إسلامية آنذاك في آسيا الوسطى، ولا يهم إن تم ذلك بواسطة اليابان في الماضي أو الصين اليوم، فلنشر أن شعوب منطقتنا ليست لها عداوة تاريخية مع هاتين الدولتين، وتعود هذه الرغبة في رؤية الغرب ضعيفا إلى أسباب دينية، وكذلك تاريخية كالاستعمار والحروب الصليبية وغيرها، إضافة إلى اعتقاد شعوب المنطقة، بأن هذا الغرب هو سبب تخلفها وبؤسها، فهذا الموضوع يحتاج إلى تفصيل أكثر ليس هنا مجاله.

لكن ما يخشى من هذا التعاطف هو أن يتخذ كذريعة غربية لضرب هذه الشعوب والضغط أكثر على دول المنطقة، بل إمكانية إخضاعها للاستغلال بأشكال وأساليب أخرى جديدة أيضا كحل لأزمة الرأسمالية العالمية كما وقع في القرن 19، فلنضع في ذهننا مقولة صموئيل هنتنغتون في كتابه «صدام الحضارات» أين يحذر الغرب من تحالف الحضارتين الإسلامية والكنفوشيوسية (أي الصينية) ضد الغرب[20]،

ألا يخشى اتخاذ ذلك ذريعة ومبررا لغلق طرق المواصلات ومنع الطاقة والأسواق عن الصين الشعبية التي أصبحت منافسة قوية للولايات المتحدة الأمريكية في إطار الصراع حول الزعامة العالمية، فمن غير المستبعد أن يكون انتشار وباء كوفيد-19 سببا لعداء علني للصين، خاصة بعد الترويج أنها وراء فيروس كورونا، الذي تمكنت من احتوائه بعد مدة في الوقت الذي لازال العالم يصارعه في كل مكان، وما يدعم لهذا الترويج هو تحول الصين إلى المصدرة الرئيسية لكل المستلزمات الطبية لمواجهة الوباء، فكأنها حضرت لذلك منذ مدة طويلة.

ومن الممكن جدا في حالة صعود قوي للصين، أن يهدد زعامة أمريكا للعالم وأن تلجأ هذه الأخيرة إلى إشعال حرب عالمية في شرق آسيا شبيهة بالحرب العالمية الأولى أو الثانية في أوروبا، فما لا يعلمه الكثير هو أن العلاقات الدولية في شرق آسيا تشبه إلى حد كبير العلاقات الدولية في أوروبا القرن 19 المبنية على توازن القوى المتصارعة (الذي حدد في مؤتمر فيينا 1818 على يد المستشار النمساوي مترنيخ)، ويخص هذا التوازن خاصة كل من فرنسا وألمانيا مع دولة جزيرية تلعب دور الحكم للحفاظ على هذا التوازن الأوروبي، وهي إنجلترا بحكم موقعها كجزيرة منعزلة يهددها أي محاولة لسيطرة دولة واحدة على أوروبا القارية.

إن هذا الوضع الأوروبي في القرن 19 هو القائم اليوم في شرق آسيا، فالصين محاطة بعدة دول معادية لها لأسباب تاريخية وحدودية وجيو-إستراتيجية، ومنها اليابان والهند والفيتنام دون نسيان تايوان التي هي عبارة عن قاعدة عسكرية أمريكية، وأي صعود للصين معناه اختلال هذا التوازن الذي تحرص عليه أمريكا بتواجدها في المنطقة عسكريا، خاصة في اليابان وتايوان، فقد سعت أمريكا بنصيحة من بريجنسكي وكيسنجر للعب دور التوازن في شرق آسيا وإحتواء الصين[21]، لكن لو أصبحت أمريكا مهددة بشكل كبير في الزعامة العالمية من الصين، فإنها ستتخلى عن حفاظها على هذه التوازنات في شرق آسيا، مما سيؤدي إلى حرب عالمية بين هذه الدول المتصارعة في المنطقة، خاصة أن الصين لها طموحات كبرى في المنطقة، وهو ما سيحطم الصين في النهاية، وتخرج أمريكا مستفيدة مرة أخرى كما استفادت من الحرب العالمية الثانية التي دمرت أوروبا، والأخطر من ذلك كله هو إمكانية نشوب حرب نووية في المنطقة بتحريض أمريكي، وهو ما يدفعنا إلى التساؤل عن مستقبل الأسلحة النووية في ضوء كوفيد-19.

3 - مستقبل أسلحة الدمار الشامل وإعادة النظر في الانتخابات الديمقراطية

إن العالم سيعيش بعد وباء كوفيد-19 وضعا مشابها إلى حد ما لعالم ما بعد الأزمة الاقتصادية 1929، كما حذرنا من صعود المتطرفين إلى السلطة في عدة دول بنفس الطريقة التي صعدت بها النازية والفاشية إليها في ثلاثينيات القرن الماضي مستغلين الوضع الاقتصادي والاجتماعي المتردي، فبعد وباء كوفيد-19 سيعرف العالم صعود اليمين المتطرف في بعض دول أوروبا، وكذلك المتطرفين الدينيين في بعض بلدان العالم الإسلامي، فقد أثبت التاريخ بأن كل أزمة اقتصادية واجتماعية خانقة تؤدي دائما إلى صعود المتطرفين الشعبويين والمتلاعبين بالعواطف الشعبية، خاصة الدينية منها، كما تحدث في بعض الأحيان ثورات ناتجة عن الجوع التي تؤدي إلى الفوضى التي يستغلها الفاشيين لفرض سلطتهم مستغلين رغبة الجميع في سلطة قوية تفرض الأمن والاستقرار.

فلنتصور مثلا ماذا سيقع في حالة وصول اليمين المتطرف في بعض دول شمال المتوسط إلى السلطة بسبب الأزمة الاقتصادية والاجتماعية الخانقة الناتجة عن كوفيد-19 في نفس الوقت الذي سيصعد فيه متطرفين دينيين إلى السلطة في بعض دول جنوب المتوسط؟ فأكيد سيحدث صدام حضاري كبير بين ضفتي المتوسط الذي سينحدر إلى العنف الدموي المدمر، والذي سيتخذه متطرفو بلدان شمال المتوسط كذريعة للتدخل في بلدان جنوب المتوسط، وذلك ليس فقط بسبب تهديد التطرف الديني والإرهاب لها كما ستدعي، وتتخذها كذريعة، بل لأنها سترى ذلك كحل لتلك الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي ستعاني منها دول شمال المتوسط، فللتاريخ ألم يكن هيجان جائعين في باريس وتهديدهم للسلطة هناك أحد أسباب احتلال الجزائر في 1830 للتخلص منهم وإرسالهم إليها لنهب ثرواتها، وأيضا لكي ينقد الملك شارل العاشر عرشه، أفلم يدعو الكثير من المنظرين الاستعماريين الأوروبيين في القرن 19 كالفرنسي ألفريد فاهل Alfred Wahl والبريطاني سيسيل رودس Cecil Rhodes على سبيل المثال لا الحصر إلى احتلال بلدان للتخلص ممن أسموها بـ «ثورات الجياع والبؤساء» في أوروبا؟[22]

يبدو أنه قد غاب للأسف الشديد عن العالم المنشغل بمواجهة وباء كوفيد-19 التفكير في تداعيات أزمة اقتصادية واجتماعية خانقة على مستقبل العالم وأمنه وسلامته، فليضع في حسابه إمكانية وصول متطرفين إلى السلطة لا يقيمون أي وزن للإنسان،

خاصة في دول تمتلك ترسانة من الأسلحة النووية التي يمكن أن تقع مفاتيحها في يد هؤلاء الذين يمكن تسميتهم بـ "المجانين" الذين يتصرفون بعنجهية، ولا يقيمون أي حساب أو وزن لانعكاسات تصرفاتهم.

نعتقد أنه سيعود بقوة ذلك القلق الإنساني الذي عرفه العالم بعد ظهور السلاح النووي والخوف من إستخدامه، مما سيؤدي إلى الدمار الشامل لعالم في حالة وصول هؤلاء «المجانين المتطرفين» إلى السلطة تحت غطاء الديمقراطية، فلنتذكر كيف فكر الإنسان وتساءل لو وقع السلاح النووي في يد ألمانيا الهتلرية كيف سيكون مصير الإنسان والبشرية آنذاك، وهم يحمدون الله أن أمريكا سبقتها إلى إنتاج هذا السلاح، لكن هل نسي هؤلاء أن حتى من يعتقدون أنهم عقلاء، فإنهم عندما يتم تهديد مصيرهم ومصالحهم، فإنهم لا يتوانون عن استخدام كل الوسائل لحمايتها بما فيها الأسلحة النووية، ألم تستخدمها أمريكا برئاسة ترومان في اليابان في أوت 1945 إلا لأنها خشيت أن يسبقها الإتحاد السوفياتي إلى هناك، فيسيطر على جزء من آسيا؟، ألم يدع الجنرال الأمريكي ماكارثر باستخدام النووي ضد الصين الشعبية أثناء الحرب الكورية في 1950؟ ألا يمكن في حالة تهديد الصين للزعامة الأمريكية أن تلجأ هذه الأخيرة إلى إشعال حرب نووية مدمرة في شرق آسيا التي تعيش وضعا مشابها لأوروبا القرن 19 وبدايات القرن 20 حيث نجد الصين محاطة بمجموعة دول معادية لها، وتمتلك أغلبها السلاح النووي؟.

سيعيد علينا عالم ما بعد كوفيد-19 بقوة طرح أسئلة السلاح النووي ومصير الإنسان ومستقبله في حالة وصول متطرفين إلى السلطة، كما سيعيد علينا سؤال نوقش بقوة وهو العلاقة بين العلم والسياسة، فكلنا يعلم أن العلماء لم يكن هدفهم الحروب وصناعة الأسلحة بقدر ما كان هدفهم نبيل، وهو خدمة الإنسان، فألفريد نوبل Alfred Nobel مثلا اخترع الديناميت لتسهيل العمليات المنجمية ولتخفيف الأعباء عن عمال المناجم، لكن حول السياسي ذلك الاختراع إلى سلاح مدمر، مما جعل نوبل يندم على ذلك الإختراع، فجعله يتألم طيلة حياته بسببه، فوضع جائزة نوبل للسلام تمنح لكل من يخدم السلم العالمي، ونجد نفس الشيء عند مكتشف الطاقة النووية الفيزيائي الأمريكي روبرت أوبنهايمر Robert Oppenheimer الذي كان هدفه علمي وسلمي وخدمة الإنسان، وليس وضع العالم تحت رحمة سلاح نووي لو وقع في يد مجانين متطرفين سيدمرون الأرض والبشرية نهائيا، ألا يحق لنا اليوم وضع شروط أدق للوصول إلى

السلطة كي لا يتحكم مجانين في العالم، فيدمرونه، هذا ما سيدفع دول العالم إلى إعادة النظر في الانتخابات الديمقراطية غير المشروطة والمفتوحة للجميع بما فيها المتطرفين المجانين، والتي يمكن أن تكون سببا في تدمير العالم؟

الخاتمة

يتبين لنا مما سبق أن لانتشار وباء كوفيد-19 سيكون له تأثير كبير على مستقبل العالم في حالة استمراره لمدة طويلة، بل إمكانية أخذ الوباء تطورات لم تخطر على بال الإنسان، وسيتحول إلى تحدي يمكن أن يكون نقطة تحول حضارية عالمية كبرى، بل نشأة حضارة عالمية جديدة تماما، وليست مرتبطة بمناطق معينة مثل الحضارات السابقة، وقد أوردنا بعض ملامح ومظاهر هذه الحضارة الناتجة عن هذا التحدي الذي سيتفاعل معها الإنسان، ويستجيب لها إيجابيا، فالإنسان ينتج لكل وضع وتحدي أدواته وتكنولوجياته وممارساته وغيرها.

لكن يرى الكثير أن الاستمرار الطويل لوباء كوفيد-19 هو احتمال ضعيف جدا، لكن مهما كانت مدة الوباء التي تجاوزت اليوم نصف عام، ومن غير المستبعد استمرار انتشاره أكثر من سنة أو سنتين، فقد استمرت الإنفلونزا الإسبانية مثلا سنتين، وهي أقل انتشارا وخطورة وتطورا من وباء كوفيد-19، لكن مهما كانت هذه المدة القصيرة، فسيكون لهذا الوباء انعكاسات على العالم، خاصة في المجال الاقتصادي، وسيعرف العالم أزمة اقتصادية حادة شبيهة أو أكثر حدة من أزمة 1929، وسينبثق عن هذه الأزمة إمكانية وصول متطرفين إلى السلطة في عدة دول مستغلين الوضع الاجتماعي والاقتصادي المتردي، وهو ما يمكن أن يهدد السلم العالمي، بل إمكانية وقوع أسلحة الدمار الشامل في يد أنظمة متطرفة لا تحسب للإنسان أي اعتبار، وهو ما من شأنه إعادة القلق الإنساني الذي عرفه العالم عند اختراع السلاح النووي في بداياته، وهو ما يجب أن يحسب لذلك ألف حساب من الآن كي لا يتكرر عالم ثلاثينيات القرن 20 بكل ما حمله من دمار، دون أن ننسى إمكانية صعود قوى عالمية جديدة كما يحدث دائما بعد حروب كبرى، ويرشح الكثير انتقال ثقل الحضارة إلى جنوب شرق آسيا وصعود الصين، لكن هل ستستلم الولايات المتحدة الأمريكية لذلك، وهي التي خططت منذ نهاية الحرب الباردة لمشروعها الإمبراطوري للقرن 21 الذي يجب أن يكون -حسب المشروع- قرنا أمريكيا؟■

الهوامش:

1. Arnold Toynbee, L'histoire-un essai d'interprétation-, traduit par Elisabeth Julia, ed Gallimard, Paris, 1951

2. Jacques Attali, Une brève histoire de l'avenir, ed Fayard, Paris, 2009

3. Jacques Attali, L'homme nomade, ed Fayard, Paris, 2005

4. يمكن العودة في هذا الموضوع إلى مداخلتنا المعنونة بـ "مستقبل التكنولوجيا العسكرية وتأثيرها على الدفاع الوطني- تكنولوجيا الإتصالات- نموذجا" في ملتقى «تأثير التطور التكنولوجي على الدفاع الوطني» الذي نظمه المعهد العسكري للوثائق والتقويم والإستقبالية التابع لوزارة الدفاع الوطني، بتاريخ 04 ديسمبر 2017

5. Charles Darwin, L'Origine des espèces au moyen de la sélection naturelle ou la préservation des races favorisées dans la lutte pour la vie (texte intégral de la 1ère édition parue en 1859), Books on demand, Paris, 2017.

6. Joseph-Arthur de Gobineau, Essai sur l'inégalité des races, FB éditions, Paris, 2015.

7. Olivier Le Cour Grandmaison, Coloniser, Exterminer : sur la Guerre et l'Etat Colonial, ed Fayard, Paris, 2005, pp 81 -84.

8. Samir Amin, Le développement inégal -essai sur les formations sociales du capitalisme périphérique-, ed Minuit, Paris, 1973

9. Frederich Nietch, Ainsi a parlé Zarathoustra, traduit par Georges Arthur Goldsmidt, ed Minuit, Paris, 1972

10. https://www.banquemondiale.org/fr/news/press-release/202008/06//covid-19-to-plunge-global-economy-into-worst-recession-since-world-war-ii

11. Pascal Boniface, Géopolitique du Covid-19 -Ce que révèle la crise du coronavirus, ed Eyrolles, Paris, 2020

12. يمكن العودة إلى المقارنة بالأرقام إلى:

Les Etats-Unis-Cavalier Seul, Revue Questions Internationales, n°98 (Aout2019), La Documentation Française, Paris, 2019.

13. Boisseau Du Rocher et Dubois De Prisque, La Chine et le Monde, éd. Odil Jacob, Paris, 2018

14. Henri Regnault, « La méditerranée dans la division internationale du travail», in la méditerranée inquiète, éd. De l'aube, Paris, 1993.

15. Samir Amin, Op-cit.

16. Edward Luttwak, La Montée en puissance de la chine et la logique de la stratégie, Traduit Par Jean Luc fidel, éd. Odil Jacob, Paris, 2012

17. Guy Fargette, Méhémet Ali, éd. L'Harmattan, Paris, 1996

18. Heeleen Mees, Pourquoi la crise financière est en grande partie le fait du boom économique chinois et de l'importance que cela a aujourd'hui, in Foreign policy, fevrier 2012, traduit par Aurélee Blondel, in: http://www.slate.fr/story/49619/ECONOMIE-chine-responsable-crise

19. Pierre- Cyrille Hautcœur, La crise de 1929, éd. La Découverte, Paris, 2009

20. Samuel.P Huntington, Le choc des civilisations, Traduit Par Jean Luc Fidel et autres, éd. Odil Jacob, Paris, 2009

21. Zbigniew Brzesnsky, Le vrai choix- l'Amérique et le reste du monde, éd. Odil Jacob, Paris, 2004

-Henry Kissinger, De la Chine, Traduit Par Odil Demange et Marie- France De Palomera, éd. Fayard, Paris, 2011

22. Vladimir Lénine, L'impérialisme stade suprême du capitalisme, traduit Par Georges Lebica, éd. Broché, Paris, 2011, pp114-115